كلية : الآداب

القسم او الفرع : / قسم الاجتماع

المرحلة: المرحلة الثانية

أستاذ المادة : أ. م . د . وفاء كاظم علي

اسم المادة باللغة العربية : المجتمع العراقي

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Iraqi Society

اسم المحاضرة الحادية عشر باللغة العربية: التفسخ الخلقي في المدن

اسم المحاضرة االحادية عشر باللغة الإنكليزية : Congenital degeneration in cities

محتوى المحاضرة الحادية عشر

التفسخ الخلقي في المدن

يرى بعض الباحثين أن الحياة في المدن تشجع على التفسخ الخلقي . وكان ابن خلدون يذهب إلى مثل هذا الرأي . فهو عندما قارن بين أخلاق البدو وأخلاق الحضر وجد فرقا كبيرا بينهما . فالبدو في نظره أفضل أخلاقاً من الحضر ، إذ هم بعيدون عما في الحضر من ترف وتكالب على المادة وانهماك في الشهوات . وفيما يلي بعض ما قاله ابن خلدون في هذا الصدد :

« ... وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجة العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها ، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصر لون آخر من ألوانها . فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش وجهه ومن غير وجهه ، وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والرب البياعات . ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه ... » .

« وإذا كثر ذلك في المدينة أو لأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها ، وهو معنى قوله تعالى : -(وان أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . ووجهه مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها ، فلا تستقيم أحوالهم فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت ... » .

« ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي ذلك إلى فساد النوع ... فافهم ذلك واعتبر به إن غاية العمران هي الحضارة

والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات »[1] . مما يجدر ذكره أن هذا الرأي الذي جاء به ابن خلدون ، حول فساد الأخلاق في المدن ، قد لا جميع المدن ولا سيما

[1] ابن خلدون (المقدمة) – تحقيق علي عبد الواحد وافي – ج٣ , ص: ٨٧٧ – ٨٨٠.

الحديثة منها . فالأخلاق من الأمور الاعتبارية أو النسبية ، وهي تخضع لما اعتاد الناس عليه في مجتمع ما من معايير ثقافية . فما نعتبره في مجتمعنا خلقاً سيئاً قد يعتبره غيرنا من الأخلاق الفاضلة . تطبيقه على فالملاحظ في المدن الحديثة من البلاد « الراقية » أن الوضع الخلقي فيها لم يصل في تفسخه إلى الدرجة التي وصفها ابن خلدون . لا ننكر أن المدن الحديثة تحتوي على مناطق معينة يكثر فيها التفسخ الخلقي ، وهي المناطق التي تعرف بالـ « Slums » ، أما المناطق الأخرى منها فهي في الغالب غير متفسخة خلقيا ، ونعني بذلك أنها منسجمة في وضعها الخلقي مع المعايير الثقافية السائدة في المجتمع هناك[٢] . يبدو أن ابن خلدون استمد رأيه في فساد أخلاق الحضر من مشاهداته الشخصية في المدن التي خالطها وعاش فيها . وعندما قارن أخلاق تلك المدن بالتعاليم المثلى التي جاء بها الإسلام اعتبرها منحطة . وهو محق في ذلك من الناحية الاعتبارية كما لا يخفى . وحين ندرس أخلاق المدن العراقية في العهد العثماني نجد رأي ابن خلدون منطبقاً عليها إلى درجة كبيرة . فأهل المدن العراقية كانوا يستمدون معاييرهم الخلقية من التعاليم الدينية السامية ، بينما كانوا في حياتهم الواقعية يسيرون على ما يناقض تلك التعاليم . الواقع أن البدو يناقضون تعاليم الإسلام في كثير من عاداتهم ، ولكنهم لا يدركون ذلك ولا يشعرون به . أما أهل المدن فهم ، لكثرة ما يشيع بينهم من المواعظ الدينية والمجادلات المنطقية ، يدركون الفرق بين عاداتهم وتعاليم دينهم . وهناك ناحية أخرى يختلف فيها أهل المدن عن البدو في هذا الشأن ، وهي أن أهل المدن قد اقتبسوا من البداوة كثيراً من العادات ، كما رأينا في فصل سابق ، ولكنهم لم يحافظوا على نقاوة تلك العادات كما جاءت من البادية ، بل هم قد شوهوها ومسخرها حتى صارت أكثر بعداً عن التعاليم الدينية مما كانت عليه في أصولها الأولى . وهذا هو الذي جعل ازدواج الشخصية واضح الأثر في أهل المدن ، فهم بمقدار ما كانوا منحطين في سلوكهم الواقعي كانوا يحلقون في تفكيرهم المثالي تحليقاً عالياً .

كان المجتمع العراقي قبل ذلك قانعاً بما عنده ، واثقاً بصحته ، وهو يكاد لا يعرف غيره . ولكنه وجيء على حين غرة بأمور مخالفة لما إعتاد عليه ، فأصيب من جراء ذلك بصراع نفي اجتماعي . وهو لا يزال يعاني من هذا الصراع ، وسيظل يعاني منه أمداً طويلاً .

مقاومة الحضارة :

من طبائع المجتمع البشري بوجه عام أنه ميال إلى مقاومة كل تغير غير مألوف يطرأ عليه . وهذا أمر نلاحظه في جميع المجتمعات ، الراقية منها والمنحطة ، وهو ما يعرف في علم الاجتماع بـ « الاستمرارية

---

[2] Gist and Halbert (Urban Sociology) P. 163.

الثقافية ») Cultural inertia[٣]. إنما هو قد يكون ضعيفاً أو شديداً في أي مجتمع من المجتمعات تبعاً لاختلاف الظروف فيه . والظاهر أن مقاومة الحضارة الحديثة كانت في العراق شديدة جداً ، ولعلنا نستطيع أن نعزو ذلك إلى العوامل التالية :

أولا : كان العراق يعيش قبل مجيء الحضارة اليه في شبه عزلة اجتماعية ، كما أشرنا اليه آنفاً ومن طبيعة العزلة الاجتماعية أنها تؤدي بالناس إلى شدة التمسك بتقاليدهم القديمة وإلى الخوف من أي تغيير يطرأ عليها . فاذا جاءهم التغيير شعروا كأنه يهدد بتحطيم مقدساتهم التي اطمأنوا اليها زمنا طويلاً . ولهذا نراهم يهبون للدفاع عنها بحماس وضراوة .

ثانيا : لقد تميز مجيء الحضارة إلى العراق بالمفاجئة ، كما ذكرنا . أضف إلى ذلك كانت عند مجيئها راقية جدا وفيها من عجائب المخترعات والنظم ما يخلب الألباب ، وهذا من شأنه أن يثير في الناس رد فعل عنيف ضده . فلو أن الحضارة جاءت إلى العراق ببطء وتدريج ، على منوال ما . جاءت إلى بعض البلاد العربية الأخرى كمصر ولبنان ، لربما كان رد الفعل فيه أضعف أثراً .

ثالثا : كان مجيء الحضارة إلى العراق مصاحباً للاحتلال الانكليزي . وقد كان لهذا الأمر أثره البالغ في النفوس ، ولعله أبلغ أثراً من العاملين السابقين . وهو جدير بأن نتحدث عنه بشيء من الاسهاب . اعتقد الكثير من أهل العراق أن الحضارة الحديثة هي من صنع الانكليز وأمثالهم من « الكفار » ، وهي ..إذن - لابد أن تكون مخالفة لدينهم وهادمة له . لقد كانت تلك نظرة ساذجة

ان اي انقلاب مهما كان ، ولو قامت به « الملائكة » ، ليس في مقدوره أن يلبي مطاليب الناس جميعاً ، ولاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار هذا العدد الهائل من أبناء الجيل الجديد الذين انفتح أمامهم سبيل « الترقي » واشتد فيهم الطموح نحو « المعالي » . لابد أن يشعر الكثير منهم بخيبة أمل تجاه الانقلاب ، بعد مدة قصيرة أو طويلة . فهم يرون غيرهم ممن هو دونهم في الإخلاص والكفاح قد وصل إلى ما كان يطمح اليه ، فلماذا لم يصلوا هم ؟!

طبيعة الازدواج الحديث

ان هذا الوضع الذي تحدثنا عنه قد يبعث في الجيل الجديد ازدواجاً في الشخصية يشبه من بعض الوجوه ذلك الازدواج الذي رأيناه في آبائهم في عهد مضى .

---

[3] Dawson and Gettys (An Introduction to Sociology) P. 583-585.

ان أبناء الجيل الجديد لم يعودوا يتأثرون بالمواعظ الدينية كما كان يفعل آباؤهم من قبل ، بل هم أخذوا يتأثرون بمواعظ من نوع مستحدث هي تلك التي تمطر هم به المدارس ووسائل النشر والدعاية الحديثة كالصحف والاذاعات والاحزاب وما أشبه .

يجب أن لا ننسى أن الكثيرين منهم نشأوا في طفولتهم في بيئات محلية قديمة ، ولعبوا في الازقة ، حيث اعتادوا فيها على قيم التغالب والعصبية والكسار والشقاوة . فاذا كبروا صـاروا يتعلمون الأفكار والمصطلحات الحديثة . ومعنى هذا أنهم وقعوا تحت تأثير ثقافتين متناقضتين ، ولابد أن يظهر فيهم نمط من ازدواج الشخصية ضعيف أو شديد .

إن أحدهم قد يتمشدق بأرقى ما جاءت به الحضارة من مبادىء ومفاهيم ، ولكن ذلك ليس سوى طلاء سطحي حيث تكمن تحته الشخصية الزقاقية ، فلا تكاد تمس بعض الأوتار الحساسة منها حتى ينتفض صاحبها « سبعاً » ضارياً كأنه من « اشقياء » ذلك الزمان .

مهما يكن الحال فليس جميع أبناء الجيل الجديد على درجة واحدة فـي هـذا الازدواج . فالبعض منهم قد انصهروا في الثقافة الحديثة انصهاراً جعل ظاهرهم وباطنهم متقاربين . ويبدو أن هؤلاء كانوا في طفولتهم غير منسجمين مع الحياة الزقاقية ، أو شعروا بالنفرة منها لسـبـب مـن الأسباب ، فاعتزلوا عنها وأخذوا ينهمكون في دروسهم أو هواياتهم الانطوائية . ولهذا كانوا في كبرهم أقدر من غيرهم على التكيف للثقافة الحديثة .